جرَّةٌ مِن ظِلَال

رشا سليم

بدأت أتأمل، فتارة أكتب، وتارة أمحي ما كتبت، فلم أَجد الكلمات المناسبة للبداية، أتمتم، أسرح، أفكر، هل أبدأ بمقدمة غامضة، أم مقدمة صريحة، فأنا لم أعتد الكتابة.

تنقلنا كثيراً بين المدن وبين المساكن، ما اضطرنا إلى التنقل، أيضاً، بين المدارس أنا وأخواي الاثنان اللذان كانا يكبرانني. كل مكان انتقلنا إليه حملت منه الكثير من الذكريات بداخلي، البعض منها جميل، والبعض الآخر أفضل ألا يبقى منقوشاً في الذاكرة.

في بيت لحم؛ المدينة الأولى التي ولدت وترعرعت فيها، كنت أدرس في مدرسة خاصة «مدرسة راهبات مار يوسف»، إلى أن انتقلنا إلى مدينة القدس، حيث ساءت أحوال أبي المادية جداً، فاضطر إلى تسجيلنا في مدرسة حكومية. رفضت المدرسة معتقدة أن المدراس الحكومية هي مدراس سيئة، ما اضطر أمي لإقناعي بالمحاولة، وبعد ضغوط كبيرة منها، قررت أن أذهب إليها.

«مدرسة شعفاط الأساسية»؛ تلك المدرسة التي رفضتها فاحتضنتني ووضعتني على أول الطريق، قدمت لي ما لم أكن أتوقعه، ساعدتني على اكتشاف موهبتي التي كانت حلماً وصراعاً، وأصبحت حقيقة ومهنة. أذكر اليوم الذي كنت فيه في الصف الثامن في تلك المدرسة؛ أي كنت في عمر الرابعة عشرة حين طلبت المدرسة من الطالبات جميعهن أن يقمن بعمل رسومات خاصة بهن، وتم اختيار مجموعة من تلك الرسومات، وأرسلوها إلى مركز تدريبي ليختاروا من بينها مجموعة أخرى، وكانت رسمتي من بين تلك الرسمات.

كان اللقاء التدريبي الأول في ذلك المركز، حيث دخلنا إلى غرفة مرتبة تحتوي على مراسم وأقلام وألوان بعددنا العشرين، وفي الوسط قد وضعت طاولة مستديرة الشكل عليها جرة تتدلى منها بعض الأغصان والورود التي يلامس بعضها الطاولة المغطاة بغطاء جميل، ومركز عليها ضوء من اتجاه واحد، بحيث يمكننا أن نرى ظلال الجرة بالاتجاه المعاكس.

رحبت بنا المسؤولة قائلة: «أنتن فتيات موهوبات بالرسم، لقد جمعناكن من مدارس مختلفة، سنعطيكن فرصة لاحقاً للتعرف على بعضكن البعض، الآن سنطلب منكن رسم ما ترونه أمامكن، وسنختار أفضل 10 ليستمروا معنا.

شعرت بالتوتر في بداية الأمر، فالمسؤولة كانت تتابعنا بأعين محدقة مفتوحة على أوسعها من خلف نظارة

كبيرة كانت تلبسها، كانت تبحلق في كل حركة كنا نقوم بها، وتمر بيننا وكأنها مفتش يبحث عن شيء ضائع أو يريد التحقق من قضية ما. مر الوقت، وما أن أعلنوا أنه شارف على الانتهاء حتى سمعت المسؤولة تطلق أصواتاً من خلفي قائلة «واو ... واو»، كنت لحظتها أضع قلمي الرصاص، وأتناول قلماً ملوناً لأبدأ في تلوين رسمتي حتى أمسكت بيدي وطلبت مني ألا أتابع التلوين، وأن أبقي رسمتي كما هي، مرسومة فقط بقلم الرصاص. نظرت إليها باستغراب لتتابع حديثها إليّ، رسمتك رائعة ولا تحتاج إلى أي شيء آخر، اتركيها كما هي، حملت لوحتي وعرضتها على الجميع فقابلوها بالتصفيق الحار.

بعد فترة قصيرة، يقوم المركز بتصميم بوسترات كبيرة للرسمة التي رسمتها وتعليق أحدها على باب إدارة مدرستي، بحيث تحمل اسمي عليها، ومجموعة كبيرة من البطاقات الصغيرة التي صممت لتباع في شوارع القدس، بحيث تحمل، أيضاً، رسمتي. كان فخراً كبيراً لأمي التي لم تتوانَ يوماً عن توفير كل ما احتاجه من أدوات للرسم لأمارس موهبتي، بعد أن تمت دعوتها من قبل المركز ليقدموا لها الشكر، ويطلبوا منها الاعتناء بموهبتي جيداً.

استمريت في المركز، حيث انتقلت من مرحلة الرسم إلى الفسيفساء، ومن ثم إلى النحت، وهكذا حتى شاركت في التدريبات جميعها على مدار عام واحد. أذكر في ذلك العام أنني كنت أعود من كل لقاء تدريبي بشعورين؛ شعور بالفرح وآخر بغصة في القلب، ودموع تملأ العينين، لأخبر أمي بأنه بقدر سعادتي بالانضمام لتلك الدورة، فإنني حزينة جداً لأن كل ما أنجزه من عمل فني يقومون بأخذه مني، ولا يسمحون لي باصطحابه إلى البيت، مبررين ذلك بأنه سيعرض في معرضهم الفني، عكس ما كانوا يفعلونه مع باقي المشتركات اللواتي كن يحملن أعمالهن إلى بيوتهن ليتمتعن بها مع بقية أفراد عائلاتهن، إضافة إلى أنني كنت أشعر كل الوقت بأنني مراقبة من قبلهن، والعيون جميعها تنظر إليّ.

انتهت السنة التدريبية، وكان عليّ الانتقال إلى مدرسة أخرى، وإلى بيت آخر أيضاً. لم أحب المدرسة الجديدة أبداً، لم أشعر بأنني أنتمي لها، تغيرت كل اهتماماتي

جانب من تطبيقات المربية رشا سليم مع طفلاتها في روضة «راهبات مار يوسف» في رام الله.

وتوجهاتي فيها ماعدا شيء واحد؛ هو إصراري على متابعة موهبة الرسم، كان دفتر الرسم والألوان هما الوسيلة الوحيدة التي تعينني على الدراسة، خربوشات صغيرة كنت أرى فيها كل عالمي.

كانت حياتنا صعبة من كثرة التنقلات، فكان الرسم هو الشيء الوحيد الذي يخفف عني ثقل الغربة بين الأماكن. كان الرسم ملاذي ومنفسي حتى أصبح يشكل دخلاً أجمع منه مصروفي اليومي، وبخاصة بعدما ساءت أحوال عائلتي الاقتصادية أكثر فأكثر، فقررت حينها أن أعمل في مراكز ومؤسسات فنية أعلم فيها الفنون لطلاب أصغر مني، أعطي دورات في الرسم، وأخرى في الأشغال اليدوية، والدراما، وكنت أشارك، أيضاً، في فرق الدبكة، وفرق مسرحية، وأحصل من خلالها على مكافآت تجعلني أعيل بها ذاتي.

أمي التي كانت تعمل معلمة، كانت داعمي الأول وملجأي. كانت تشجعني على كل خطوة أقوم بها، ربت فيّ العزيمة والمثابرة، جعلتنا نتحدى ظروفنا دوماً، ونبحث عن حلول وبدائل كل الوقت. أفخر جداً بتربيتها لي، وأقول دوماً لها «يا ريت بقدر أربي أولادي زي ما ربيتيني».

أنهيت المرحلة الثانوية بمعدل عالٍ، وهنا بدأت الكارثة، أبي يتوقع مني أن أختار بين تخصصيّ الإدارة أو المحاماة، وأنا اختار تخصص الفنون الجميلة. صراع يستمر 6 أشهر، وعلى أثره أخسر الفصل الدراسي الأول في الجامعة.

كان أبي شخصاً عنيداً جداً، رفض بشكل قطعي تخصص الفنون؛ مبرراً ذلك بأنه لا يستحق أربع سنوات من عمري لأتعلمه، فهو تخصص لا يطعم عيشاً كما فسره، ولا يبشر بمهنة مرموقة. فكنت أرد عليه قائلة: «الدنيا كلها فن، والحياة تمشي على إيقاع الفن، ومهما وقعت فسأجد دوماً عملاً لأقوم به لأنني فنانة».

أذكر يوماً حين احتد الكلام بيني وبين أبي كثيراً، أحاول أن أقنعه بتسجيلي في الجامعة لأدرس الفنون الجميلة، وهو بدوره يصر على رفضه، فحين صمتُّ واستفزه ذلك، سألني: لماذا لا تردين علي؟ فكانت إجابتي له: «لن أرد عليك لأن قلة الرد هي فن أيضاً». ثارت ثورته حينها،

المربية سليم في نقاش مع طفلات روضة راهبات مار يوسف خلال أحد التطبيقات.

وأعلن أنه لن يساعدني في أي شيء في دراستي، ولن يتحدث به أيضاً.

انصاعت في البداية أمي لأمر أبي، ولم أملك أنا أيضاً، بدوري، المال لأسجل في الجامعة، فاضطررت حينها للتسجيل في دورات تعلم التجميل بكل أنواعه.

مضى الفصل الدراسي الأول في الجامعات، وأنا لم أسجل بعد، حتى التقيت بإحدى الزميلات التي قالت لي بأنها تدرس في جامعة أبو ديس، فطلبت منها اصطحابي لتلك الجامعة لأراها. فور وصولي توجهت مباشرة إلى كلية الفنون الجميلة، واستفسرت جيداً عن شروط التسجيل للفصل الثاني، علمت حينها إنني يجب أن أتقدم بامتحان عملي كشرط أساسي لقبولي في الكلية.

عدت أطلب نجدة أمي في إقناع أبي بالانتساب إلى الجامعة، لكنها أصرت أن أبي سيرفض ذلك، وأنها يمكنها مساعدتي بإعطائي جزءاً من قيمة رسوم الفصل، وتحتاج مني أن أتدبر الباقي. وافقت وتوجهت إلى الجامعة لأتقدم بالاختبار الذي نجحت فيه وبدأت أبحث بعدها على شغل أقوم به لأسد منه باقي تكاليف الدراسة.

مرت السنوات الأربع على هذا الحال، جزء من قسطي الجامعي تعطيني إياه أمي، والجزء المتبقي أتدبره أنا. كانت من أجمل سنوات عمري، حققت من خلالها كل ما حلمت به، أبدعت في مجال دراستي، وأثناءها كان أكبر تحدٍّ لي هو «أبي».

أذكر جيداً يوم تخرجي من الجامعة، حيث اجتمع بي أبي وقال لي: «إنني فخور جداً بك، وبما حققته، وأفصح عن السر الذي احتفظ به لأربع سنوات، وهو أن نصف القسط الذي كانت أمي تعطيني إياه هو منه، وأنه لم يرد أن ينهزم أمام وعيده بأنه لن يساعدني، لكنه فعل بطريقة غير مباشرة ودون علمي.

ما أن تخرجت حتى تزوجت مباشرة، وانتقلت للسكن في مدينة رام الله، حيث تم تعييني مباشرة معلمة فن ودراما في مدرسة خاصة.

فما كان لي إلا أن تذكرت السبب الرئيسي لانتسابي لهذا المشروع المذهل، وهو إرادتي بتطوير ذاتي في توظيف الدراما في التعليم، وبخاصه بعد أن رأيت الأنماط المتعددة في الاختلافات الفردية للطالبات، فمنهن من تشعر أنها فهمت كل ما تريدين قوله دون أي كلام، ومنهن من توجد لديها صعوبات تعلم، ومنهن المتوسطة، ولكن جميعهن متفقات على الترحيب بالطريقة الجديدة للتدريس، وهي توظيف الدراما في التعليم. لم أكن أعي أن لنهج عباءة الخبير مخططات مسبقة، فكنت أنفذها بداعي الفكاهة للطالبات، أو بالأحرى بالطرق الأقرب لهن لاستيعاب الدرس، والتمكين في عقلهن، ومن هنا تشجعت لتقديم طلب التحاق بـ«المدرسة الصيفية: الدراما في سياق تعلمي» التي ينظمها برنامج البحث والتطوير التربوي في مؤسسة عبد المحسن القطان سنوياً في مدينة جرش الأردنية ... ولكن تضاربت أفكاري بين ذهابي وابتعادي عن ابني، وعن إرادتي لخوض هذه التجربة، وبينما كنت أفكر جاء ابني وقام بمعانقتي وقال: «ماما .. بدي يااااك!» من دون سبب ... فهنا وقفت للحظة، وقلت لن أذهب وأتركك يا بني مع غصة نهشت حماسي الذي بدأ يتلاشى ... .

اتصلت بالمؤسسة، وعلمت أنه توجد دورة قريبة للطفولة المبكرة، لكنها لمده أطول لكن في فلسطين، بحيث لا احتاج إلى السفر، ومن هنا بدأت الحكاية.

راهبات مار يوسف-رام الله

طفلات الروضة خلال تطبيقات المربية سليم.